بين تلستوى وماكس نوردو

للأستاذ عبد الرحمن شكرى

قرأت تلستوى قبل أن أقرأ نقد ماكس نوردو لآرائه. وكنت أشك فيما شك الناقد الألمانى، ولكنى عندما قرأت نقده لتلستوى لم يقنعنى تعليله، أو على الأقل رأيت أنه لم يتتبع كل احتمال يمكن أن تصير إليه النفس الحائرة فى بحث معضلات الحياة، ولم يقف كل موقف من الجائز أن تقفه فى أثناء بحثها؛ فكان تعليله لما ينقد من الآراء بالشذوذ الجثمانى فى صاحب الرأى، ولم يدر أن كل إنسان شاذ وأن كل مفكر مصحوب بشىء من الشذوذ الجثمانى، وأن الشذوذ الجثمانى قد يكون فى غير المفكر أكثر منه فى المفكر، وأن الانسان حيوان شاذ، وأن الرأى الذى ينقده قد يكون قد دخل عليه الخطأ بسبب رفض صاحبه لخطأ آخر فى أثناء بحثه الحياة واختيار مسالك الرأى فيها. ولو أن ماكس نوردو قد فسر سبب رفض تلستوى لنقيض ما رأى من الآراء لكان قد وصف رحلة نفس تلستوى فى عالم الاحساس والوجدان، ولكان قد وصف رحلة فكره فى عالم الأفكار، ولكان قد وصف من تلك المسالك ماهو كالتيه ذى الطرق المتشعبة وما يحسبه ماكس نوردو طريقا معبدا بالخرسان والقطران والأسفلت

خذ مثلا رأى تلستوى فى الامتناع عن الاجرام حتى قتل المجرم للدفاع عن النفس أو عن طفل برىء، فهو يقول لك انصح المجرم وعظه والتجىء إلى جانب الخير من نفسه وحاول أن تمنعه من ارتكاب جريمة القتل، ولكن احذر أن يكون منعك إياه عن الجريمة بأن تأتى أنت جريمة كأن تقتله؛ فاذا رأيت مجرماً يريد أن يقتل طفلا فضع نفسك بينه وبين الطفل وعظه، ولكن لا تقتله لأنه يريد أن يقتلك أو أن يقتل إنساناً آخر حتى ولو كنت قادراً على قتله

يأخذ ماكس نوردو هذا الرأى فيفنده ويسخر به ويهزأ منه. وله أن يفنده وأن يظهر مواطن الضعف فيه، وله أن يسخر منه ما شاء أن يسخر، وله أن يقول إن هذا رأى يؤدى إلى موت الأبرار وتحكم الأشرار. إذا أخذ به بعض الناس ولن يأخذ به كل الناس إلا إذا امحى الشر من النفس الانسانية فلا يكون إذن للرأى معنى ولا ضرورة. وإذا مات الأبرار الأخيار بسبب أخذهم بهذا الرأى وتحكم الأشرار رجعت الحالة إلى ما كانت عليه قبل الشروع فى تحقيق هذا الرأى وانعدم هذا الرأى من عالم الأفكار والأحياء. فاذا قال ماكس نوردو كل هذا كان مصيباً فى قوله. وإن كنا لانقطع بحدود فجاءات النفس البشرية وحدود عدوى المحاكاة كمحاكاة الانقطاع المطلق عن الشر. ولعل تلستوى قد قدر كل ماقدره ماكس نوردو من شر يعود به الانقطاع عن الشر حتى فى الدفاع عن الخير أو عن النفس أو عن الأحياء، ولكن لعله كان يؤمن بالنفس البشرية أكثر من إيمان ماكس نوردو بها فقدر أيضاً ذيوع الأخذ برأيه وانتشار عدوى محاكاة الانقطاع عن الشر حتى تعم الناس قاطبة بعد ويل يكون للبادئين بالاخذ به، والبادئون دائماً ضحية فى كل رأى ومذهب. ولعله قدر أيضاً أنه لو أخطأ فى إيمانه بالنفس الانسانية فان الويل والضرر اللذين يكونان نتيجة الاخذ برأيه مقبولان فى سبيل تجربة قد تعود على الانسان بالخير الآجل إن لم يكن عاجلا؛ ولعله قدر أيضاً ان المرء قد لا يأخذ برأى الانقطاع عن الشر المطلق دائما، ولكن هذا الرأى قد يبعد به عن الشر أحياناً أو قد يقلل من غلواء شره كما قللت روادع المسيحية من قسوة من اعتنقها من التيوتون الذين غزوا الدولة الرومانية وإن لم تقض على قسوتهم كل القضاء. ولم يكن تلستوى أول من فكر هذا الفكر، فانه فكر تلتجىء إليه النفس الانسانية المعذبة كلما حاولت التهدى إلى وسيلة تخلصها من شرور الحياة كما فعل البوذيون قديماً عندما دهمتهم قبائل المغول والتتر والتركمان فى الهند، وكما فعل المسيحيون القدماء عندما كانوا مضطهدين فى الدولة الرومانية الوثنية قبل اعتناقها للمسيحية

ثم لعل تلستوى قد قدر أيضا أن دفع الشر بالشر يؤدى إلى خلود حب الانتقام والأخذ بالثأر؛ وكثيراً ما فنيت أسر وقبائل وشعوب بسبب خلود حب الانتقام والأخذ بالثأر جيلا بعد جيل. ونحن نرى الآن كيف يهدد الخراب عالم العمران بسبب دفع الشر بالشر والمباراة فيه.

فترى أن خطأ تلستوى ليس بالخطأ الذى يتهم صاحبه من أجله بالانحطاط والجنون كما فعل ماكس نورداو الناقد الألمانى،

ولم يكن هناك من داع فى هذه الحالة لنظرية الانحطاط التى بنى عليها ماكس نوردو كتابه (الانحطاط) ولو أنه اكتفى بابراز الحيرة الفكرية التى أدت بهروب تلستوى من نظرية دفع الشر بالشر إلى نظرية ألا يدفع الشر بالشر وأوضح خطأ هذه الحيرة لكان أقرب للتقوى

وعرض ماكس نوردو مذهب تلستوى فى العاطفة الجنسية ؛ وله أن يفنده وأن يسخر منه ، ولكن كان من تمام الحكمة والفلسفة والتفكير أن يعرض شرور الحلول الأخرى التى تحل بها معضلة العاطفة الجنسية لكى يفسر الحيرة التى أدت إلى هروب تلستوى منها ، فان حل معضلتها ليس طريقا ممهودا بالأسفلت والقطران كما حسب ماكس نوردو ؛ وهو إن كان كذلك فهو أيضا كثير الحفر والمهاوى ، وهى التى أدت إلى ذلك الرأى الغريب الذى ارتآه تلستوى وجعله يطلب رفضها رفضا باتا حتى فى حالة الزواج ؛ وهو فى هذه الناحية أقل إيمانا بالنفس الانسانية من ناقده ، ولكن كان يجدر بناقده أن يبرز الشرور والآثام التى تكثر ، سواء أكان حل معضلة العاطفة الجنسية بغلبة القيود والغيرة ، أو بضعف القيود والغيرة أو بانعدامها كلها ؛ فلعل تلستوى قد نظر طويلا إلى كل حالة من هذه الحالات ؛ ولعل طول نظره فى كل حالة هو الذى حيره ودعاه إلى رفض العاطفة الجنسية رفضا باتا . فالحيرة ليست دائما دليلا على كلال الذهن وقصر نظره وغموضه وانحطاطه ؛ وهى تذكرنى برجل جليل فاضل مفكر كان يجيد لعب الشطرنج ويفكر فى كل تفكير يصح أن يفكر فيه الذى يلاعبه ، فكان لا يفكر فى لعبة إلا فكر فى طريقة ضدها تهزمها فينتهى به الحال إلى أن يلعب أول لعبة تخطر على ذهن اللاعب وتستدعى سخر الناظرين وضحكهم

ونظر ماكس نوردو إلى موقف تلستوى من العلم ، وكان ينبغى لو حاول الاتزان فى النقد أن يفسر سبب الحيرة التى دفعت بتلستوى إلى رفض أكثره ، وأن يميز بين حيرة الجاهل الغبى وبين حيرة الذكى التى هى أشبه بحيرة لاعب الشطرنج الذى وصفته ، وأن يفرق بين خطأ الغافل الذى لا يفكر وخطأ المفكر الذى يحيره كثرة الفكر وتشعب مسالكه والتواؤها حتى براها مثل حارات القاهرة القديمة التى ليس بها منفذ ولكنها حيرة لا تستدعى أن يتهم صاحبها بالانحطاط حتى ولو كان صاحبها مخطئا ، وإلا كان الانسان حيوانا كثير الانحطاط ، وكأن الانحطاط الذى يعنيه هو من النقص المحتوم فى الطبيعة البشرية . ولعل تلستوى قد قدر عواقب العلم الحديث فى النظم الاقتصادية وفى النظم والمخترعات الحربية وهى عواقب أدت إلى كوارث الحرب العظمى وأهوالها ، وإلى الأزمة الاقتصادية ومعضلاتها ، وهى إلى الآن تهدد العالم بالخراب ؛ فلا غرابة إذا أدركته الحيرة ، ولا غرابة اذا أخطأ فلم يصب أحد بعد فى حل تلك المعضلات . ولعل تلستوى قد فكر أيضاً فيما فكر فيه اللورد بالفور عند ما قال فى وصف أثر العلم الحديث فى تغير نظر الانسان إلى الحياة : « إن العلم الحديث يعلم الانسان أن الدنيا لم تخلق من أجله ، وأنه ليس تاج الخليقة ولا أنه من سلالة من سكن الجنان قديماً ، وأن حياته جاءت عفوا ، وأن تاريخه قصة عار وحادثة لا تشرف من حوادث أحقر نجم سيار ، وأنه مملوء بالأسقام والآثام والمجاعات والقتل والقسوة ، وأن الانسان بعد آلام لا تحصى قد صار له من الضمير ما يعرف به حقارة نفسه ، ومن العقل ما يدرك به أنه مخلوق تافه ، وأنه بعد عصور طويلة فى ذاتها قصيرة بالنسبة إلى ما مضى من العصور الجيولوجية سينمحى بها الشمس ورونقها ، ولا تسمح الأرض ببقاء ذلك المخلوق الذى أقلق هدأتها ، فيفنى الانسان وتفنى معه آراؤه وأفكاره كلها ، فكأنما كان عمله وذكاؤه وايمانه وآلامه وجهاده فى عصور حياته الطويلة عبثاً ومن غير جدوى »

ثم إن العلم الحديث يقول أيضا إنه على فرض تحقق السلم والخير الشامل ، وعلى فرض انمحاء الشر ، فان هذه حالة تؤدى إلى تدهور الانسانية ، لأن الخير فى مقاتلة الشر ، والذكاء مستنبط من الخوف والحذر من الجوع ومن اعتداء القوى ، فاذا انمحى الخوف والحذر والشر والاعتداء ضعفت الانسانية وتدهورت وتردت فى هاوية الفناء

ولعل تلستوى قد نظر أيضا إلى ما نظر اليه ادن فلبوتس القصصى الانجليزى فى وصف أثر هذه الآراء كلها فى المجرمين فى أوروبا والولايات المتحدة وغيرهما . فاذا كان تلستوى بعد ذلك النظر قد رفض أكثر هذه الآراء العلمية فليس رفضه دليلا على الانحطاط كما قال ماكس نورداو بل هو من حيرة المفكر الذى يتهدى .

ولعل تلستوى فى استعراضه تاريخ العاطفة الجنسية ومحتملاتها